- ٣ -

حديث الإفك

استقر الإسلام فى المدينة. خاصة بعد أن حقق انتصارًا مذهلا على مشركى مكة فى معركة (بدر).. وعندما حاولت قريش أن تأخذ بثأرها فى (أحد) لم يتحقق لها الانتصار الكامل.. فلولا أن رماة المسلمين عصوا أوامر الرسول عندما طلب منهم ألا يغادروا أماكنهم عندما يلوح النصر..

إلا أنهم تركوا هذه الأماكن بحثًا عن الغنائم، وانتهز خالد بن الوليد وكان لا يزال على دين أبائه وأجداده.. انتهز هذه الفرصة وجاء من خلفهم وأوقع بهم خسائر كبيرة.. ولكن قريشًا خشيت أن تظل فى قتال الرسول حتى لا تنقلب الكفَّة فى غير صالحهم.. فآثروا الانسحاب والعودة إلى

مكة. . ومع ذلك فلم يكن انتصار مكة انتصاراً حاسماً. .

فقد أصبح للإسلام فى المدينة مكانة مرموقة، حيث يسود العدل وسماحة الإسلام الجميع. . وحيث أصبح المسلمون قوة يخشى عواقب التصدى لها كل القبائل العربية. . وفى ظل هذا المجتمع الذى ينعم بقيم الإسلام الروحية من صلاة وصيام وزكاة. . مما جعله مجتمعاً متآلفاً قويًا يسود أفراده طمأنينة الإيمان. . وجلال اليقين. . وإيثار ما عند الله. . رغم كل ذلك فقد كان هناك بعض المنافقين فى المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أُبَى بن سلول. . الذى كان من آماله أن يصبح ملكًا على يثرب قبل هجرة الرسول إليها، ولم يتحقق له هذا الأمل. . فقد كانت شخصية الرسول الآسرة، وبناؤه للمجتمع الجديد عائقًا بينه وبين تحقيق آماله التى تلاشت، ولم يبق إلا ما فى صدره من غِلٍّ وحسد على المسلمين.

. . وحدث فى شهر شعبان فى السنة الخامسة من الهجرة أن تناهى إلى سمع الرسول ﷺ أن (الحارث بن أبى ضرار). . سيد بنى المصطلق. . وهم بطن من خزاعة. . وكانوا قد ساعدوا مكة فى قتالها الرسول فى (أحد). . سمع النبى أن الحارث هذا يريد أن يهاجم المدينة، فخرج النبى

لملاقاته.. وطلب منهم الإسلام، ولكنهم رفضوا، فهزمهم المسلمون هزيمة منكرة، وأخذوهم أسرى.. وكان من بين الأَسْرة (جُويرية بنت الحارث) التى استغاثت بالرسول، فتزوجها ﷺ، وبالتالى أصبح هذا البطن من خزاعة أصهار الرسول، فأسلموا.

وفى هذه الغزوة تخاصم أجير لعمر بن الخطاب مع رجل حليف للخزرج على الماء.. فقد تنافس كل منهما على أن يكون هو الأسبق إلى الماء، وضرب الأجير حليف الخزرج الذى استنجد بالخزرجيين.. وكادت تكون فتنة، عندما استنجد أجير عمر بالمهاجرين.. ولكن الرسول ﷺ أخمد الفتنة فى مهدها.. وعادت النفوس إلى التآخى والصفاء.. ولكن عبد الله بن أُبى بن سلول الذى كان من آماله أن تندلع الفتنة بين المهاجرين والأنصار، حتى يشفى غليل نفسه، أخذ يثير الناس.. فكان مما قاله للناس وهو يبغى اندلاع الفتنة:

«والله ما رأيت كالليلة مذلّة، قد نافرنا القوم وكاثرونا فى بلدنا، وأنكروا فضلنا. والله ما نحن وهؤلاء إلا كما قال القائل: سَمِّن كلبك يأكلك! ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ!» وقال لقومه:

«هذا ما فعلتم بأنفسكم؛ أحللتموهم فى بلادكم،

وأنزلتموهم منازلكم، وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم، ثم لم ترضوا ما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضًا للمنايا! فَقُتِلتم دونهم، فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا.. فلا تنفقوا على من حوله حتى ينفضوا!».

وسمع أحد غلمان الأنصار وهو (يزيد بن الأرقم) قول هذا المنافق، فأخبر الرسول بذلك..

وغضب الرسول من هذا المنافق الذى يريد أن يشعل الفتنة بين المسلمين، ويدعو من جديد إلى العنصرية والجاهلية، فقال عمر بن الخطاب:

«يا رسول الله مُرْ به عَبَّاد بن بشر فليقتله وليأتك برأسه».

فقال ﷺ:

«لا.. فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه ولكن أذن بالرحيل».

وأمر الرسول أصحابة بالرحيل رغم شدة الحر، حتى تنتهى هذه الفتنة.

والعجيب أن عبد الله بن أُبى عندما علم أن الرسول قد علم بأمر ما كان يضمره من إحداث فتنة، ذهب إلى النبى

ﷺ وأنكـر أنه تحدث بـشىء مما سـمـع! ولـكـن الرســول صمـت ولم يجبه!

ومضى يسير متجهًا نحو المدينة.

ونزل على الرسول قوله تعالى فى شأن المنافقين:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

[المنافقون: ١ - ٢]

وقال تعالى:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

[المنافقون: ٧ - ٨]

* * *

وقد استغل عبد الله بـن أُبى ما حدث لأم المؤمنين عائشة ليبث سمومه، محاولا زرع الفـتنة بين المسلمين.. فقد حدث أن أسرع النـبى مع أصحـابه إلى المدينة، وكـانـت عائـشة -

رضى الله عنها - معه فى هـذه الغزوة. . وكانت قد تخلفت عن ركب رسول اللـه ﷺ حين انفرط عقـدها، وأخذت فى جمـعه. . بينمـا ظن المسلمـون أنها فى هـودجها. . فـساروا بالهودج على ظن أن أم المؤمنين عـائشة به. . وعندما وجدت السيدة عائشة نفسها وحيدة، لم ترتجف أو تخف، فقد أيقنت أن الرسول سوف يرسـل إليها من يعيدها إلـى المدينة، فظلت فى مكانها. . وأثناء ذلك رآها (صفوان بن المعطل السَّلَمى). . الذى تـخلف هـو الآخر عـن الآخريـن. . بعض الـوقت. . وعندما رآها عـرفها، وأركبهـا بعيره وانطلق بهـا إلى المدينة، التى دخلها فى وضح النهار.

ولم يكن فى هذه القصة شىء يسـتحق أن يثار من حوله الشـبهات، إلا أن عـبد الله بـن أُبى، اتخذ من هـذا الحادث وسيلة لأن ينفث سمومه، ويشـيع ما لا ينبغى، ويقول عن أم المؤمنين ما لا يجب أن يقال. . وبدأ يتحدث عن سبب عودتها مع صفوان، الشاب الوسيم، وردد كلـماته حمنة بنت جحش أخت زينب زوجة الرسـول، لأنها كانت تعرف منـزلة عائشة فى قلـب رسول الله. . كـما فعـل ذلك حسان بـن ثابت. . وبدأت سموم عبـد الله بن أُبى تنتشر، حتـى وصلت الأخبار إلى الرسول، فحزن حزنًا شديداً، ولم تكن عائشة تعرف عما يدور عنهـا شيئًـا، ومرضت عـائشة ولكن لاحـظت أن هناك

جفاء من قِبل الرسول، فلم يلاطفها كما كان يلاطفها وهى الزوجة الأثيرة إلى نفسه، مما جعلها تطلب من الرسول أن تذهب عند أمها لترعاها فى مرضها، وظلت فى مرضها أكثر من عشرين يومًا، إلى أن عرفت عندما شفيت ما يقال عنها، فحزنت حزنًا شديدًا.

وحزن الرسول لأن ألسنة بعض المنافقين لم تتورع عن الخوض فى حديث الإفك، حتى إنه خطب الناس وقال لهم:

«أيها الناس:

ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عنى غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرًا.. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتى إلا وهو معى».

وعندما سمع أسيد بن حضير ما قاله الرسول قال:

يا رسول الله. إن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن نضرب أعناقهم.

وكان سعد بن عبادة حاضرًا فرد على أسيد أنه قال ذلك لأنهم من الخزرج! وكادت تحدث فتنة لولا أن احتواها الرسول بحكمته.

وعتبت عائشة على أمها أنها لم تخبرها بما تلوكه ألسنة

البعض عنها، وأخذت تفكر فـى الأمر . . وآلمها أن يشك فيها أحد، وعـندما ذهب الرسـول إلى بيت أبـى بكر ومعـه على وأسامـة بن زيد، وسألـهما الرأى . . فـنفى أسامـة أن تكون عائشة قد فعلت ما يشينها . . وأنها بريئة مما نسب إليها، بينما قال علـى: يا رسول الله إن الـنساء كثـير . . وضرب جـارية لعائـشـة، لأنهـا عـندما طلب مـنها أن تصدق رسـول الله، وكان جوابها:

- والله ما أعلم إلا خيراً.

وقال لها الرسول:

- يا عـائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقى الله إن كنت قد قارفت سوءًا مما يقولون، فتوبى إلـى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده.

فقالت للنبى وهى باكية:

والله لا أتوب إلى الله مما ذكـرت أبدًا، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أنى بريئة لأقولن ما لم يكن ولئن أنا أنكرت لا تصدقونى.

وصمتت برهة وقالت:

أنا أقول كما قال أبو يوسف: صبـر جميل والله المستعان على ما تصفون.

ونزل الوحى ببراءة عائشة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

[النور: آية ١١ وما بعدها]

إلى قوله تعالى:

﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

[النور: ١٦ – ١٩]

ونزلت عقوبة رمى المحصنات:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

[النور: ٤]

وقد طبقت هذه العقوبة على من رددوا حديث الإفك وهم مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش. فقد ضرب كل منهم ثمانين جلدة.

ومع الأيام.. عفا الرسول عن شاعره حسان بن ثابت كما طلب من الصديق معاملة مسطح كما كان يعامله قبل حديث الإفك.

والدارس لأحداث (حديث الإفك).. يعرف كيف صبر الرسول ﷺ كل هذا الصبر، وما تحملته السيدة عائشة بما يفوق طاقة البشر..

وقد ضاق عبد الله الابن من أبيه ابن أُبى ذرعًا وبمكائده، حتى إنه ذهب إلى رسول الله قائلا له:

- «يا رسول الله.. إنه بلغنى أنك تريد قتل (عبد الله بن أُبى) فيما بلغك عنه، وقلت: من يعذرنى فى رجل آذانى فى أهلى؟ فإن كنت لا بد فاعلا فمرنى به، فأنا أحمل لك رأسه! فوالله ما علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده منى. وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنًا بكافر فأدخل النار».

فقال ﷺ: بل ترفق به، وتحسن صحبته ما بقى معنا.

وقال الرسول لعمر: كيف ترى الآن يا عمر؟

أما والله لو قتلته يوم قلت لى: اقتله لأرعدت له أنفس لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته!

فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى.

و.. انتهت هذه الفتنة

وعادت عائشة كما كانت أقرب النساء إلى قلب زوجها.. الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ.

بقى أن نعرف أن حسان بن ثابت حاول أن ينفى عن نفسه خوضه فى حديث الإفك..

وقال مادحًا السيدة عائشة فى قصيدة يقول فيها:

مهذبة قد طيب خيمها

وطهرها من كل سوء وباطل

فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتم

فلا رفعت سوطى إلى أناملى

وهو القائل مدافعًا عن الرسول الكريم ﷺ.. ويهجو من يتعرض له بسوء.. ومن ذلك قوله موجهًا حديثه لأبى سفيان:

هجوت محمدًا فأجبت عنه
وعند الله فى ذاك الجزاء

فإن أبى ووالده وعرضى
لعرض محمد منكم وقاء

ولكثرة دفاعه عن الإسلام ونبى الإسلام.. كان بحق هو شاعر الرسول.

* * *